الفصل الثامن عشر

الاختبار المقدَّس

أخيراً صعد الجنود المسيحيون على متن سفنهم الحربية في قبرص ليباشروا مهمّتهم الحقيقية ضدّ الوثنيين، المهمّة التي من أجلها قدّموا حياتهم، وممتلكاتهم، وشرفهم. أقلعوا وحناجرهم تعلو بالغناء بينما الأبواق تُنفخ والزمامير تصدح بنغماتها العالية. «تركتُ الشرّ ورائي وتحوّلتُ إلىٰ حياة كريمة وأريد أن يسمع الناس أغنيتي»، هذا ما كانت تقوله أغنية صليبية حماسية عنوانها «Parti de mal»، ابتعدتُ عن الشر. «نادانا الرب في حاجته إلينا ولن يخذله امرؤ كريم النفس. لقد تواضع ومات على الصليب من أجلنا؛ والصحيح أنّه يجب أن ينال مكافأته؛ فبموته كلّنا افتُدينا». ولكن كان هناك خوف على قدر الفرح. فقلّة هم الصليبيون الذين يعودون من تلك الأراضي الوحشية، حيث العرب غدّارون والمخاطر عظيمة. «أغنّي لأريح قلبي»، كانت أغنية أخرى تقول، حول هذه الحملة الصليبية الملحمية ما وراء البحار: «لأنّي لا أريد أن أموت أَو أجنّ بالرغم من اضطرابي الكبير. يا رب! عندما يصرخون «ما وراء البحار Outremer»، ساعد هذا الحاج لأنّي أرتجف».

وكان هدفهم الأوّل أن يساعدوا في حصار عكّا.

في أيام أسعد عاشتها المملكة اللاتينيّة، كانت عكّا المرفأ الفلسطيني الرئيسي، والنقطة التقليدية التي ينزل فيها حجّاج أوروبا المسيحيون، والسوق التجاري الكبير شرق المتوسّط. كان المرفأ يقع في أرض على شكل عقيفة عند الطرف الشمالي لخليج عكّا تجاه حيفا عبر المياه، والتي تقع على مسافة ثمانية أميال، عند طرف الخليج الجنوبي. وكان الخط الساحلي بين المدينتين عبارة عن صفّ عريض من الكثبان والرمال الناعمة، من نوع الرمل الذي كان يقدّره الصاغة الفرس لعملهم. من ميناء عكّا كان المؤمنون يسافرون برّاً ليس إلىٰ القدس وحسب بل أيضاً إلىٰ الناصرة والجليل وحتّى إلىٰ أماكن بعيدة مثل ضريح سيدة صيدنايا. هذا المكان المقدّس الذي لا يبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً عن عرين الكفّار، دمشق، ولذا كان السفر محفوفاً بالمخاطر ويجب القيام به برفقة مواكبة من فرسان الداوية الشجعان.

لكن الزيارة كانت تعود بفائدة كبيرة. يقال إنّ الضريح تأسّس سنة 546 بعد الميلاد عندما كان جوستينيان الأوّل، إمبراطور بيزنطية، في حرب مع فرس المنطقة وقد أخذ فترة راحة من القتال خصّصها للصيد. كان يطارد غزالة، يبدو عليها التعب، وأدركها الإمبراطور قرب صخرة بجانب بحيرة صغيرة. وعندما شدّ المحارب وتر قوسه ليقتلها، تحوّلت الغزالة إلىٰ أيقونة تمثّل السيدة العذراء مريم، ومن هذه الأيقونة امتدّت يد بيضاء معترضة. وسمع الإمبراطور صوتاً رنّاناً يقول له: «لا لن تقتلني يا جوستينيان، إنّما ستبني لي كنيسة على هذه التلّة». وهكذا فعل. وأصبحت الكنيسة ديراً تلوح قبته وأبراجه المدهشة عالياً فوق تلك المنطقة الصحراوية. وفي الداخل كانت توجد أيقونة، رسمها القدّيس لوقا نفسه، كان يعتقد أنّ لديها قوى عجائبية. كما قيل إنّه نما لحم للأيقونة من العنق حتّى البطن، وإنّه كان يرشح من الصدر زيت له رائحة أعذب من البلسم الذي يشفي من كلّ داء. وهكذا في السنوات التي سبقت سقوط عكّا في يد صلاح الدِّين سنة 1187م، كانت تنطلق فرق صغيرة من المرضى والمقعدين من

المرفأ مع حرّاس من الداوية، خصوصاً في منتصف آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر للاحتفال بيومي الصعود ومولد السيدة العذراء مريم، ويتحدّون طريق الرحلة الطويلة والخطرة عبر التلال وفي بادية الشام سعياً وراء بضع قطرات من ذلك الزيت العجيب والشفاء المبارك.

كانت عكّا بالنسبة إلىٰ إنسان عاش في القرون الوسطى حاضرة كبيرة تقارن ثروتها بثروة القسطنطينية. وفي القدم، كانت مدينة الفينيقيين الجنوبية، ثمّ أصبحت مدينة متعدّدة اللغات والأديان والأجناس تلتقي عندها القارّات الثلاث، فيختلط فيها باعة من البندقية ومرسيليا بتجّار من شمال أفريقيا واليمن، وتتلامس أكتاف اليهود والأرمن بأكتاف نسطوريين من الموصل وأئمّة من بغداد. كما يندسّ في ظلالها أحياناً حشّاشون من مصيف ومن الكهف. أمّا شارعها الرئيسي، شارع القصّابين Rue de la Boucherie، فيمتدّ من السور الخارجي إلىٰ الميناء وكان يومها بيئةً صاخبة، تعبق بالروائح والفوضى، وتعجّ بالناس والحركة.

كانت عكّا مدينة تقية المزاعم ودنيوية الميول. تعيش نخبتها الثرية في أبّهة القصور الواسعة ورفاهيتها. ويشجب رئيس أساقفتها فساد هذه الطبقة الميسورة وعنفها. كان معدّل الجريمة في المدينة مرتفعاً والملفت هو عدد الزوجات الراقيات المولد اللواتي كنّ يسمّمن أزواجهن. أمّا تجارة الرقيق الأبيض فكانت مركّزة في مواخيرها العديدة، التي كانت تتضمّن أيضاً بيوتاً يؤجّرها رهبان للمومسات. ويشكو زوّارها المسلمين من رؤية مسلمات مقيّدات بالسلاسل، ويزجرون الغواني الأوروبيات اللواتي «جعلن من أنفسهن أهدافاً لسهام الرجال، وأفسحن في المجال لأعمال الحرام، وقدّمن أنفسهن لضربات الرماح، وأذللن أنفسهن لعشاقهن». كان المسلمون يكرهون خنازير المدينة وصلبانها ويأسفون على مساجدها التي تحوّلت إلىٰ كنائس ومآذنها التي صارت أبراجاً للأجراس. وحده محراب مسجد الجمعة الكبير، الذي يسمّى الآن كنيسة القديس يوحنا، تُرك كملجأ للمؤمنين بدين الإسلام.

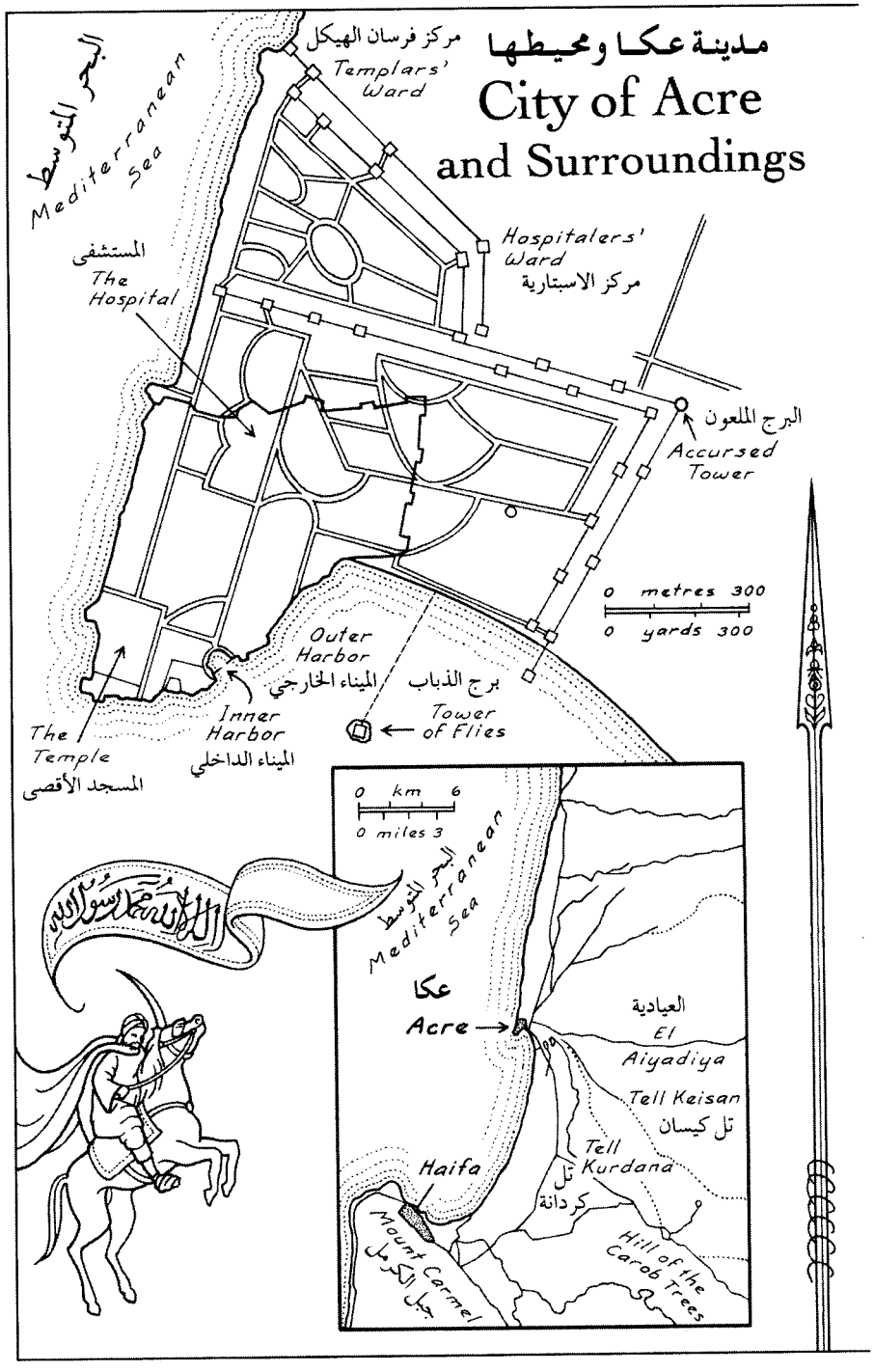
مدينة عكا ومحيطها
City of Acre
and Surroundings
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
مركز فرسان الهيكل
Templars' Ward
Hospitalers' Ward
مركز الاسبتارية
المستشفى
The Hospital
البرج الملعون
Accursed Tower
0 metres 300
0 yards 300
Outer Harbor
الميناء الخارجي
برج الذباب
Tower of Flies
The Temple
المسجد الأقصى
Inner Harbor
الميناء الداخلي
0 km 6
0 miles 3
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
عكا
Acre
العيادية
El Aiyadiya
Tell Keisan
تل كيسان
Tell Kurdana
تل كردانة
Haifa
Mount Carmel
جبل الكرمل
Hill of the Carob Trees

كان يمكن لعكّا أن تكون قاسية القلب وعنيفة، لكنّها كانت أيضاً حنونة. فقد كُرّس «شارعها الإنكليزي» للاعتناء بالحجّاج الفقراء وأقيم فيه مأوى باسم توماس آ. بيكيت. كما استلم الإسبتاريون أكبر مستشفى ونزل في كلّ الشرق الأوسط، إذ كان بمثابة مدينة تحت الأرض فيها غرف محترمة معقودة الأسقف وأسرّة تستقبل ألفي مريض وعاص تائب. عند البوّابة الشمالية وقبالة السهل حيث يلتقي السور الشمالي بالبحر، كان فرسان الداوية يقيمون حامية كبيرة لهم، وهناك كان يقوم المرء بترتيباته للحصول على حرّاس من الرهبان المقاتلين يرافقه عبر الجبال والصحراء إلىٰ صيدنايا أَو نزولاً إلىٰ القدس.

والمدينة على شكل ترس مثلّث، اثنان من جوانبها يواجهان البحر، بينما كان يحمي حدّها الشرقي البرّي سور مزدوج، وخنادق وحصون أمامية مختلفة، وأبراج تقع على مرمى حجر. ومثل صور، كانت تملك ميناء داخلياً ترتفع أمام ثغره أَو تهبط سلسلة حديدية فتفتحه أَو تغلقه. ويحمي المدخل عند طرف مكسر الموج، برج حجري يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، ويُعرف باسم برج الذباب. هذا الاسم الذي نُسب إلىٰ بعلزبوب، أَو صاحب الذباب، إذا اعتمدنا التفسير البريء. إذ يقال أيضاً إنّ الصخرة التي أنشىء عليها كانت مكاناً للتضحية في الأزمنة القديمة، وإنّ دماء الضحايا كانت تجذب عواصف من الذباب الأزرق. ومن سطوح مباني المدينة، لم يكن غريباً أن يرى من ينظر صوب البحر نحو ثمانين سفينة، راسية في الميناء أَو تنتظر خارجه. تعيد هذه الغابة من الصواري والأشرعة المصفّقة والعوارض الخشبية إلىٰ ذهن الزائر المسلم عبارة من القرآن الكريم حول سفن «رواسي شامخات»، أعمال عظيمة من صنع الإنسان ولكن أمكن وجودها بنعمة الله وحده.

عندما استحوذ صلاح الدِّين على المدينة سنة 1187م، أعاد مسجد الجمعة فيها وضريح النبي صالح عليه السلام إلىٰ سابق مجدهما ثمّ حوّل انتباهه إلىٰ وسائل الدفاع عن المدينة. كانت أضعف النقاط الأسوار المتضرّرة تجاه

سهل عكّا، والأكثر تعرّضاً فيها نتوء عند الركن الشمالي الشرقي. وحيث يلتقي الجداران في زاوية بارزة أقيم عليها برج عال. كان المسيحيون يدعون هذا البرج «البرج الملعون» ـ توريس ماليديكتا ـ لأنّه قيل إنّ قطع يهوذا الأسخريوطي الثلاثين الفضية سكّت فيه.

عند وصول الملك **غي** أمام أسوار عكّا في آب/ أغسطس 1189م، أقامت القوات المسيحية مراكز قيادتها على تلّة رملية، ترتفع تسعين قدماً، إلىٰ شرق بوابة المدينة. وقد سمّوا هذا الموقع لو تورون Le Toron، أمّا المسلمون فكانوا يعرفونه باسم تل المصلّين. من هناك انتشرت الكتائب المسيحية، وأقامت آلات حصارها على طول الجانب الشمالي وركّزت ضرباتها حول البرج الملعون. كما حفروا في عنق شبه الجزيرة التي تربض عكّا عليها، خندقاً كبيراً يحمون به خطوط حصارهم من اعتداءات خارجية محتملة.

أمّا صلاح الدِّين، بالمقابل، فقد تحرّك إلىٰ المنطقة على مهل من الجهة الجنوبية الشرقية، على طول الطريق القديمة الآتية من الناصرة. فأقام في البداية موقعاً متقدّماً على تلّة تعرف باسم العياضية، لكنه سحب قاعدته فيما بعد إلىٰ تلّة أعلى وأبعد، ترتفع مئتين وخمسين قدماً، شرق جبل الكرمل، وتعرف باسم جبل الخروبة. من هناك كان بإمكانه أن يشرف على ساحة معركة واسعة، ويرى الشق الطولي عند عنق شبه الجزيرة. وتدريجياً، نشر مختلف فرقه نحو الأمام إلىٰ مواقع قريبة من روابي العياضية الصغيرة، مثل تل كيسان وتل كردانة.

مع بداية سنة 1191م، تداخل الحصاران. أصبحت عكّا معزولة تماماً وراحت تختنق على مهل. وإضافة إلىٰ محاصرةٍ بحريةٍ فعّالة، امتدّ خط الخندق المسيحي على مسافة ميلين عند عنق الأرض الذي يؤدّي إلىٰ المدينة، ومنع أيّ وصول إليها. لكن المسيحيين أنفسهم كانوا أيضاً محاصرين، يحيط بهم قوس دائرة طوله أكثر من ثلاثة أميال أقامه صلاح الدِّين في التلال المجاورة.

مضى شتاءان والقوات الصليبية معسكرة عند أسوار عكّا، تواجه هي أيضاً

صعوبة في الحصول على مؤن لمتابعة جهودها. حتّى أنّه ذُبحت عدّة جياد قتالية للأكل، بالرغم من أنّه لم يكن من السهل إيجاد جياد بديلة. وأصبح الحصان الميت أكثر قيمة من حصان حي. وعند ذبح أحد الخيول، كان يجتمع عليه الجنود كالنسور. حين رأى قسيس هذا المشهد دار بخاطره ذكر هذه الكلمات من الإنجيل: «حيث تكون الجثة، هناك تجتمع النسور» [لوقا 17: 37]. كذلك بدأ الاستغلال ينتشر، فأصبح بنس الفضّة لا يشتري أكثر من ثلاث عشرة حبّة فاصوليا أَو بيضة واحدة، والمائة بيزنط ذهبي لا يشتري أكثر من كيس واحد من الذرة، والعشر صلديات أكثر من أمعاء حصان. وفي حين أنّه في أيام السلم كان مكيال القمح بنصف بيزنط، صار يباع بستين بيزنطاً. وبسبب هذه الأسعار تحوّل العساكر إِلىٰ أكل العشب.

وللتواصل مع مواطنيه المحَاصَرين عَبَرَ فوق الخنادق المسيحية، كان على صلاح الدِّين أن يعتمد على الطيور والسبّاحين. كان هناك جندي مسلم درّب فرقة من الحمام الزاجل على حمل الرسائل والعودة بها وشيّد بيت حمام واسعاً من القصب لرسله في مكان غير بعيد عن خيمة صلاح الدِّين. وأصبحت هذه الطيور من أبطال القضية المشهود لهم وأُثني عليها لاحقاً لإخلاصها في خدمتها. كتب أحد المؤرّخين العرب يقول: «كانت تلك الطيور وفيّة تحفظ الأسرار، وتضمن وصول الأخبار، وعَمل الرسائل، وقد أظهرت أنّها مخلوقات كريمة مثل أفضل النبلاء. كانت تتحدّى الأخطار، ولا ترتكب أيّ خطأ، وتُقدَّر باعتبارها ممتلكات ثمينة».

وكان السبّاحون الذين عرّضوا أنفسهم لمخاطر البحر ومراقبة العدو للوصول إِلىٰ المدينة اليائسة وتسليم جنود الحامية رواتبهم، هم الأكثر بطولة. لقد كان هناك سبّاح مميّز، يقدّره الجنود المسلمون، اسمه عيسى، أصبح ماهراً في حمل مال الحامية عبر مياه البحر في حزام حريري يعقده إِلىٰ خصره، ويغوص غالباً تحت السفن المسيحية. وكان دائماً يطلق حمامة إِلىٰ جبل

الخروبة ليخبر بوصوله آمناً إلىٰ المدينة. ولمّا لم تصل أيّ إشارة ذات ليلة، توجّس مواطنوه وخافوا. وبعد عدّة أيام، برزت جثته عند الصخور ليس بعيداً عن البلدة. كان المال لا يزال عالقاً في حزامه فسُلّم إلىٰ أصحابه الشرعيين. وقد كتب المؤرّخ يقول[1]: «ما رُئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقد أدّاها بعد وفاته إلاّ هذا الرجل».

وإذا كان الحمام والسبّاحون وأحياناً المغاوير في مراكب شراعية صغيرة هم أبطال الطرف المسلم، فإنّ الأخبار التي كانوا ينقلونها من المدينة إلىٰ السلطان في شتائهم الثاني أخذت تزداد تجهّماً. فالجوع راح يزحف إلىٰ عكّا التي بدأت تفقد رباطة جأشها. وصلاح الدِّين نفسه بدأ ييأس من فكّ الحصار، لا سيّما أنّ القوات المسيحية كانت تزداد كلّ يوم عدداً ومنعةً بجنود وافدين حديثاً من أوروبا. والجدير بالذكر أنّ ألوية الطليعة من الدانمركيين، والساكسون، والفلمنكيين تبعها وصول هنري دو شامباني، حفيد إليانور أوف أكيتان ابن إحدى بناتها من زواجها من الملك الفرنسي. كانت لدى هذا الفارس الشاب ثقة الملكين الفرنسي والإنكليزي اللذين كانا عمّيه بينما كان هو طليقهما.

بحضوره وبصفته طليعة الملك، نظّم شمبانيْ لعملية الحصار المسيحية إدارة شاملة ومركزية، بعد أن كانت حتّى ذلك الحين تعتمد على عناصر شجعان ولكن متنافسين، أنجزوا بدورهم هجماتٍ شجاعة ولكن عشوائية على الأسوار. أمّا أبناء بيزا وجنوى المتخصّصون في المعارك البحرية، فقد انتشروا في الشمال والجنوب حيث يلتقي السور بالبحر؛ وبينهم كان هناك الإسبتارية والداوية، وأجناد الملك غي وكونراد دو مونتفرّا، وفلمنكيون، ودانماركيون، وألمان. أخيراً أصبح هذا الخليط بإمرة قائد أعلى.

---

(1) سيرة ابن شدّاد، مرجع سابق، ص 136.

أحضر شامباني معه عشرة آلاف جندي، وعدداً من النبلاء ورجال الدين المهمّين ـ بمن فيهم رئيس أساقفة كنتربري (الذي سيموت بعد عدّة شهور، ممتعضاً، كما زُعم، من الطريقة التي أغرق فيها الجيش الصليبي نفسه في الخمر، والنساء، ولعب النرد) ـ ومجموعة من السفن لمساندة الحصار وتموين الجيش المحاصِر، وعدداً من آلات الحصار. وسرعان ما وُضعت هذه المنجنيقات في أمكنتها وبدأت الضرب بلا هوادة.

في السنة الثانية من الحصار كانت هناك أيضاً أعمال بطولية لدى الجانب المسلم. كان المغيرون المسلمون يتسلّلون أحياناً في الليل ويضرمون النار في واحدة من تلك الآلات الكبيرة، أو يرمون، إن حالفهم الحظ، علبة من النار اليونانية، نابالم القرن الثاني عشر، التي كانت تشتعل حتّى عبر الفولاذ ولا يمكن إطفاؤها إلاّ بكمّيّات هائلة من الخل. كانوا يرمونها من فوق السور على المهاجمين فتصل إلىٰ هدفها.

أمّا أشهر تلك الأعمال الشجاعة فكانت حيلةً لإدخال سفينة شحن آتية من بيروت، محمّلة بالميتة والغنم والجبن والبصل وأطعمة أخرى، وخرق الحصار المسيحي المحكم.

من أجل هذه المهمّة الجريئة لبست مجموعة من المغاوير المسلمين ملبس الفرنج، حتّى حلقوا لحاهم، وفي هذا أقصى المذلّة ونكران الذات في عمل منبثق أساساً عن منتهى التفاني. إذ كانت اللحية الطويلة والمتدلّية سمة الرجل الشرقي، بينما كان منظر الرجال الأوروبيين بوجوههم الحليقة مثل وجوه الأشباح يبعث في الشرق الخوف في النفوس. وكما لو أنّ الوجوه النظيفة لا تكفي، علّق المغاوير صلباناً على سارية السفينة وسمحوا لأكثر الحيوانات قذارة، الخنزير، بالتنقّل بحريّة على سطحها وتلويثه. فمرّ قادس مسيحي بمحاذاة السفينة المتنكّرة، وصرخ قبطانها: «نراكم متوجّهين إلىٰ عكّا!» وتظاهر المسلمون بالدهشة وسألوا: «ألم تستولوا على المدينة؟» وأجاب الفرنج: «لا

لم نأخذ البلد بعد». قال المسلمون: «حسناً سوف نرسو إذن بمحاذاة العسكر، ولكن هناك سفينة أخرى وراءنا، وينبغي تحذيرها في الحال كي لا تتوجّه إلىٰ الميناء».

وانطلت الحيلة على المحاصِرين المسيحيين الذين توجّهوا إلىٰ السفينة الأخرى، التي كانت تلوح عند الأفق، في حين أقلعت السفينة المنقذة بكل ما لديها من أشرعة إلىٰ ميناء عكّا حيث استُقبلت بالتهليل لأنّ المجاعة كانت تسود المدينة[1].

بعد تلك الحادثة بفترة قصيرة، وربّما في سورة غضبها من وقوعها في ذلك الفخّ، قرّرت القيادة المسيحية مهاجمة برج الذباب نفسه. كان هذا البريج النحيل عند مدخل الميناء يقف كصرح يمجّد صمود المدينة؛ وسيكون لتدمير رمز بارز مثله بالغ الأثر. رست هذه المهمّة على البحّارة أبناء بيزا الإيطالية الذين كانوا أشرس المقاتلين في البحر وأوسعهم خبرة. ولإتمام هذا العمل شيّد الإيطاليون المهرة قلعة خشبية ضخمة على متن أحد قوادسهم، وغطّوا جوانبها بجلود حيوانات منقوعة في الماء، وملأوا سطحها بحزم من القضبان خطّطوا لإشعالها عندما تقترب السفينة وقذفها من نوافذ البرج. وكانت هناك سفينة ثانية، منخفضة البدن، فخّخوها بنابالم القرون الوسطى ومحروقات أخرى؛ وكان المقرّر لهذه السفينة الطربيد أن تُحرق وتُطلق عبر ثغر الميناء وإلىٰ الأسطول المسلم في داخله. كذلك شُيّدت على ظهر سفينة ثالثة سقيفة لحماية مجموعة من قوات الهجوم المجتمعة تحتها من مقذوفات المدافعين فوقها، إلىٰ أن يقترب هؤلاء البحارة من مكسر الموج ويقفزون فوق صخوره، ومن ثمّ يمدّون سلالم طويلة تصل إلىٰ أعلى البرج فيتسلّقونها نحوه.

بقدر ما كانت الخطّة جريئة وذكية، جاءت النتيجة مخيبة للآمال. فقد

(1) ابن شدّاد، مرجع سابق، ص 135.

أُحرقت سفينة الحطب كما كان مقرّراً، ولكن عندما اقتربت هي والسفينة التي تحمل القلعة من برج الذباب، غيّرت الريح اتجاهها وبدأت السفينتان تنساقان بعيداً. وعندما حاول المهاجمون يائسين الإمساكَ بالسفينة ثقيلة الرأس عند مكسر الموج، أمطرهم المدافعون عن البرج بوابل من النيران اليونانية، ثمّ أخذت السفينة بالاشتعال. غير أنّ بعض أبناء بيزا تمكنوا من الوصول إلىٰ المكسر. وبينما هم يسندون سلالمهم إلىٰ البرج، انهالت عليهم حزم كبيرة وكميات من النيران اليونانية من عل، واضطرتهم إلىٰ الانسحاب. في هذه الأثناء، شاهد البحّارة ما حلّ بزملائهم من كارثة، ووقعوا في حيرة من أمرهم وضياع، وقبض عليهم عدوّهم من دون كبير عناء. عندما انتهت هذه المعركة البحرية المأسوية، ارتفعت جلبة من صفوف المدافعين وعلت أصوات الصنوج وأنغام المزامير. وبالطبع عزوا ذلك الانتصار إلىٰ مؤازرة الله عزّ وجل.

كتب المؤرخ العربي الكبير بهاء الدين يقول: «..وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نُصرة دين الله، ولله الحمد، وكان يوماً مشهوداً»[1].

بالنسبة إلىٰ الجانب المسلم كانت لحظات النصر تلك قليلة. فكلّ مرة كان يصل فيها مركب إليهم أَو يدمّرون منجنيقاً فرنجياً أَو يصدُّون هجوماً مسيحياً، كان المزيد من السفن المسيحية يظهر من البحر وعلى متونها قوات جديدة، ومؤن جديدة والمزيد من سلاح المدفعية. ومع اشتداد الحصار المسيحي، وجد صلاح الدِّين نفسه مضطراً إلىٰ سحب فرقه من مواقعها المتقدّمة، فلم يترك غير ألف جندي على تل كيسان. ومع هذا التراجع اتّسعت الدائرة المحيطة بالمحاصِرين المسيحيين، ويظهر أنّ السلطان كان يأمل من هذه الفسحة أن تدفع المتهوّرين من المعسكر المسيحي إلىٰ القيام بمزيد من الأعمال

(1) ابن شدّاد، ص 138 - 139. واسم البرج عنده: برج الذبان، أما السفينة فاسمها بطسة. وقارن بمفرّج الكروب 2/ 335 - 336.

الطائشة. لكنّه كان أملاً بلا طائل، وقدّر صلاح الدِّين أنّ قادةً أكفّاء أمسكوا بزمام الأمور.

خلال مأزق السنة الثانية من الحصار كان من الطبيعي أن تحصل مناوشات وأعمال شجاعة فردية من الطرفين، لكن الوضع عموماً استقرّ على رتابة ثقيلة بين العناصر المتقاتلة. وبينما كان دخان نيران الجنود المسيحيين ينبعث فوق المدينة المحاصَرة أَو شرقاً فوق خيام محاصِريهم، كانوا يمضون الوقت في أخبار قصص معاركهم البطولية وتجميلها. والكثير من هذه الحكايات التي وصلت إلينا، كانت مثل قصص العساكر في كلّ زمان، قصصاً بذيئة. منها مثلاً حكاية المسيحي الذي يهاجمه مسلم يمتطي جواداً وبينما هو يدافع عن نفسه ببطولة أوقع عدوّه الشرير بضربة حجر على رأسه. وحكاية الجندي المسلم الذي كان يبوّل على صليب في أعالي سور عكّا، فتلقّى سهماً مباشراً في قلبه. وحكاية الأَمير المسلم الشجاع الذي بقي في الخلف لمحاربة المسيحيين بعد تراجع جنوده، فأوقع عن ظهر جواده بينما كان يحمل وعاء من النار اليونانية انكسر خلال سقوطه واندلقت النار على أعضائه التناسلية فكان «ما نوى أن يفعله لإيذائنا وبالاً عليه».

هناك أيضاً قصّة رجلين الأوّل تركي من بارثيا والثاني من مقاطعة ويلز البريطانية، التقيا في أرض مقفرة.

تكلّم التركي المقدام أولاً فقال: «أرى أنّكَ رامي سهام ماهر. أنا مواطن من بارثيا، نشأتُ منذ طفولتي على فن الرماية، واسمي غراماهير. لي سمعة ذائعة في قومي حول أعمالي المشهورة وانتصاراتي. من أيّ بلد أنت؟ وبأيّ اسمٍ أُناديك؟».

فأجاب ابن ويلز، بمقتضى عاداته وشخصيته الويلزية، بجفاف واقتضاب من دون أي زيادة.

عندئذٍ قال التركي الثرثار: «لنر من الرامي الأفضل بيننا، فيأخذ كلّ منّا

سهماً ويسدّده بقوسه إلىٰ الآخر. قف أوّلاً في مكانك ساكناً لأسدّد سهمي إليك. وبعد ذلك ترميني بالطريقة ذاتها».

ويبدو أنّ الويلزي كان على شيء من البساطة، ووافق على هذا الاقتراح. حضّر التركي سهمه، وباعد ما بين رجليه، وعاين، وأطلق، وأخفق. عندئذٍ حضّر الويلزي المسرور دوره في الرمي. فاعترض التركي وقال: «لا، لست موافقاً. ستتلقّى محاولة ثانية منّي ثمّ ترميني مرّتين». فعلا غضب الويلزي وصرخ يقول: «أنتَ لا تلتزم بشروطك. إن لم تقف الآن، سينتقم الربّ منك ومن خداعك». ثمّ أطلق على الفور سهمه مباشرة إلىٰ قلب البارثي الذي كان قد حوّل انتباهه لاختيار سهم لرميته الثانية.

اقترب الويلزي من خصمه الجريح وقال له: «لم تكن وفياً لاتفاقك، ولا أنا لكلمتي». عند رواية هذه القصة حول النار كان الجنود يطلقون صيحات فرح وسرور تكاد تُسمع حتّى الآن.

وكانت للمعسكر المسلم أيضاً حكاياته، وكثيرة كانت الحكايات التي تدور حول كرم قائدهم. ففي مطلع ربيع سنة 1191م وقعت في الأسر جماعةٌ من الفرنج في بيروت وأُحضروا إلىٰ السلطان. وكان بين الأسرى رجل تقدّمت به السن فسأله صلاح الدِّين عمّا أتى به حتّى فلسطين. فأجاب الكهل: «جئتُ إلىٰ هذه الأرض فقط لأحجّ إلىٰ كنيسة القيامة». وقد أثّرت هذه الإجابة في صلاح الدِّين، فأطلق سراح الشيخ، وأمّن له حصاناً ومرافقةً أوصلته حتّى حدود شعبه وأهله. عندئذٍ اعترض ضبّاط صلاح الدِّين الشبّان وطلبوا إذنه لإعدام باقي الأسرى فرفض. وعندما سُئل عن أسبابه، أجاب بخصوص الشبّان المندفعين: «يجب ألاّ يعتادوا في فتوّتهم على إراقة الدماء والضحك منها»!!

في تلك الأثناء، وفي خيمته الخشبية عالياً فوق جبل الخروبة، كانت تشغل بال صلاح الدِّين مسائل استراتيجية أكبر حجماً، والذين بقوا من جيش فريدريك بربروسا الألماني يثيرون قلقه إلىٰ حدّ بعيد. كان السلطان قد استراح

عندم علم أنّه بعد غرق الإمبراطور في تركيا، تضاءل عديد قواته من مائة ألف جندي إلىٰ خمسة آلاف. لكن هؤلاء الأشدّاء الذين نجوا أصبحوا في طرابلس، وبدأوا يتحرّكون جنوباً، بقيادة محكمة من دوق النمسا، للانضمام إلىٰ حصار عكّا. لذلك طلب أمراء صلاح الدِّين منه أن يهاجم الكتائب الألمانية في طريقهم نحو الجنوب على ممرّ ساحلي مرتفع وخطر يُعرف باسم سلّم صور، ولكنه لم يوافق.

بيد أنّ مشكلته الحقيقية كانت أعمق وأكثر جدّية من القوات الألمانية وحدها. فمن عيونه في معسكر الأعداء، ومن مصادره في القسنطينية، ومن رجال الدين الكاثوليك في أرمينيا، عرف أيضاً أنّ الملكين الإنكليزي والفرنسي آتيان على رأس جيشين هائلين. وبهدف زعزعة إرادة السلطان، كان النبلاء والصليبيون ومنذ فترة يروّجون أخباراً عن وصول الملك الإنكليزي، وعن قوّته وإنجازاته شبه الأسطورية في أوروبا. وكان المسيحيون يتباهون قائلين إنّه عند وصول هذا العملاق، فإنّ الشجرة التي ذبلت في منطقة الخليل عند موت المسيح ستُنبت أوراقاً جديدة. إن كان صلاح الدِّين لم ينجح في فكّ الحصار الذي ضربه حول عكّا جيش محلّي، بقيادة الملك غي الذي يفتقر إلىٰ الكفاءة، فكيف سيواجه الاجتياح الكبير الذي يقترب منه، بقيادة ملك عملاق؟

ازداد الوضع تأزّماً يوماً بعد يوم، فبحث السلطان التقي عن مواساة له في تلاوة القرآن، ولا سيما في مشاهد المحنة والابتلاء التي تصف هجوم أعداء الإسلام على المدينة المنوّرة في ما عرف باسم معركة الخندق. ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: 10 ـ 11].

وكما سخر المنافقون يومها من المؤمنين ومن آمالهم، الوهمية برأيهم، كان لدى صلاح الدِّين منافقوه ومشكّكوه في معركة خندقه. في الآية الكريمة

أنّ الله أنقذ المسلمين بنعمته، لذا لا بدّ أن ينقذهم الآن من جديد. كان صلاح الدِّين واثقاً بنصر الله وتوفيقه.

هكذا ارتأى السلطان أن يجدّد نداءه إلىٰ الجهاد. لذلك أظهر لأمراء إمبراطوريته الشاسعة مدى تصميم أعدائهم. فالفرنج لم يوفّروا جهداً، ولم يبخلوا بالمال، والآن ها هما ملكان من أقوى ملوكهم على وشك الوصول. لقد آن الأوان للتخلّي عن التقاعس وأن يستجيب كلّ مؤمن تجري الدماء في عروقه لهذا النداء.

كان يدعو قائلاً: «طالما البحار ترسل بالتعزيزات إلىٰ الأعداء وطالما الأرض لا تطردهم، ستبقى بلادنا تعاني على أيديهم، وقلوبنا تضطرب من الأذى الذي يسبّبونه لنا. فأين شرف المسلمين، وكرامة المؤمنين، وحماسة الأوفياء؟».

وأخيراً وجد نداءه صدى في العالم الإسلامي، وتوافدت التعزيزات من أقاصي الإمبراطورية، ووصل المؤمنون من بلاد ما بين النهرين ومن مناطق بعيدة تتجاوز غرب إفريقيا دجلة والفرات، ومن مصر، ملحق بهم أفارقة من غرب إفريقيا. وكان الجميع يقدّرون أنّهم ليسوا بصدد جهاد عادي، كان مشروعاً حاسماً ذروتُهُ معركة نهائية بين جند الله وجنود الكفر.

II

مقلاع الرب
عند البرج الملعون

في 20 نيسان/ أبريل 1191م، وصل ملك فرنسا فيليب أغسطس إلىٰ عكّا. وكان قوام البطانة الملكية ست سفن، تملؤها المؤن وخيول حربية كبيرة استُولدت في النورماندي وفلاندريا، ودُرّبت لتحمل محاربين بعدّتهم الكاملة

من دروع الصفيح والزرد. فعلت أصوات الفرح على رمال الخليج عند ظهور الملك. وفي غياب ريتشارد، تصرّف الملك الفرنسي على نحو إيجابي على طريقة ريتشارد، كأنّه كان يعلم أنّ فترة تسلّمه للقيادة العليا ستكون قصيرة. فوقف بأبّهته مختالاً أمام المدينة المحاصرة وسط رايات ترفرف وأبواق تصدح مع صقر أبيض رائع من أصل نادر جاثم على ذراعه. ونصب خيمته في أقرب ما يمكن من الأسوار بحيث «يرمي أعداء المسيح رماحهم وسهامهم من فوقها». وخلال جولته التفقّدية على فتحات المتاريس وآلات الحصار التي كان هنري دو شامباني قد أطلقها، قال الملك بنبرة تخلو من اللباقة إنّه «من الغريب أن تبقى المدينة في أيدي الأعداء بالرغم من هذا العدد الكبير من المحاربين». ولكن بمهارته كإداري ودبلوماسي، عاد بسرعة وأثنى على جهود هنري في دمج حلفاء متنوّعين ضمن قوّة متماسكة متكاملة.

بعد وصوله بفترة تركه صقره الأبيض الجميل الذي حلّق بعيداً عن سيّده وتجاهل نداءات الملك والبازدار المتكرّرة، قبل أن يحطّ بصفاقة على أسوار عكّا. وقد أثار هذا الظهور المدافعين عن المدينة، الذين أمسكوا في الحال بهذه الجائزة الناصعة واعتبروا الحدث فأل خير لما سيأتي. ولم يعجب تمرّد الطائر الملك فيليب، خصوصاً لأنّه جعل أوّل احتكاك له بأعدائه الوثنيين يتم عبر التماس متكلّف لاسترداد طائره الفريد. فعرض مكافأة ضخمة مقدارها ألف قطعة ذهبية، لكن المسلمين لم يتكرّموا بردّ على هذا العرض.

بعد دراسته للوضع، قرّر الملك فيليب إقامة المركز الفرنسي بالضبط تجاه الزاوية البارزة المعروفة باسم البرج الملعون. كانت هذه الزاوية وفي وقت واحد أكثر النقاط تحصيناً وأكثرها تعرّضاً للخطر في الأسوار الخارجية. فبدأ على الفور بإضافة آلات حصاره إلى غابة المدفعية الموجودة أساساً، مع تدعيم قطعه المختلفة بالحجر والحديد لتثبيط همّة أيّ محرِق مسلم محتمل.

بين قطع مدفعيته السبع الأقوى كان هناك منجنيق حجري أسماه جنوده

«جار الشيطان» (وكي لا يتخلّف المسلمون، أقاموا منجنيقهم الخاص داخل الأسوار مقابل جار الشيطان وأسموه «نسيب الشيطان»). وهكذا بقي جار الشيطان لفترة من الوقت يتبادل المقذوفات الحجرية مع نسيب الشيطان. كذلك كان هناك منجنيق بإمرة دوق برغنديا، واسمه «مقلاع الرب». لقد رفع الملك الفرنسي جداراً وشيّد في أعلاه متاريس مدعمة بالحديد. ومن خلف هذا الوقاء الحديدي بدأت نشابياته وأقواسه الطويلة تضرب السور بلا انقطاع. فامتلأت نقاط معيّنة من الخندق المائي الخارجي بالشظايا، ومضى اللغّامون إلىٰ تقويض الأسوار تحت أداة غريبة عرفت باسم «القط». كانت عبارة عن رواق مغطّى له مقدّمة على شكل شفرة وعجلات، بحيث ينسلّ إلىٰ الأمام مثل قط ويلتصق بالجدار كما بالبراثن.

وضع الملك الفرنسي عند نقاط الهجوم هذه منجنيقاته المدرّعة، التي تسمّى أيضاً أكباشاً أو مقاليع. وبدأ يقذف الجلاميد على الأسوار ومن فوقها على شارع القصّابين وساحة اسمها «وثبة الثور» كان يجلّها منذ قرون المسيحيون، والمسلمون، واليهود لكونها الساحة التي جلب إليها الله ثوراً لآدم، وأياً تكن التسمية التي أعطاها آدم لكلّ كائن حي، أصبحت الاسم المعتمد.

بينما كانت هذه التحضيرات تسير قدماً، حوّل فيليب أغسطس انتباهه إلىٰ الشؤون السياسية. فرمى بكلّ ثقله لتأييد كونراد دو مونتفرّا وريثاً شرعياً لعرش القدس. في تلك الظروف، كان يصعب استيعاب التنافس من أجل عرش مملكة غير موجودة، لكن كلاً من كونراد والملك غي كان يتخبّط للحصول عليه. حتّى في المبدأ، كانت المملكة تعمل على أساس قوانين البيوتات الكبرى في أوروبا، أي بالنسب، بالدم، حتّى لو كان هذا الدم وبحسب المعايير الأوروبية فاسقاً. كان غي قد أصبح ملكاً فقط بفضل نسب زوجته، سبيلا الملكي، لكن الآن بعد مماتها لم تعد مطالبته منطقية، ولو أنّه لا يزال عملياً محتفظاً بالتاج.

تمرّ الآن السلالة عبر الأخت الصغرى للملكة سبيلا، إيزابيلا، لكنّها كانت متزوّجة. فقد ارتبطت منذ سنّ صغيرة بمثلي جنسي جبان اسمه هنري أوف تورون Hanri of Toron، وهو ابن زوجة ريجينالد أوف شاتيون. وحفلة زفافهما قبل سنوات في قصر شاتيون في الكرك هي التي قطعها ظهور عساكر صلاح الدِّين. والآن عبر سلسلة من الخطوات الماكرة، بما فيها تقديم الهدايا والرشاوى لإفساد رجال الدين، نجح كونراد في إبطال زواج إيزابيلا وهنري، ثمّ اتّخذها زوجةً له. فما كان من الملك غي الذي غضب غضباً شديداً إلاَّ أن يدعو كونراد إلىٰ مبارزة شخصية، لكن كونراد هزأ بهذا التحدّي. وامتعض رئيس أساقفة كنتربري من سلوك القيادة المسيحية لدرجة أودت بحياته، لكن ذلك لم يغيّر في الوضع الشيء الكثير. فمع دعم فيليب ملك فرنسا الأكيد لكونراد، ازدادت حجّة الملك غي ضعفاً، وكان هذا هو السبب الذي دفعه للإسراع إلىٰ قبرص لإقناع الملك ريتشارد تأييد قضيته.

مع وقوف فيليب إلىٰ جانب كونراد، ازداد الشقاق في صفوف الصليبيين عمقاً: ريتشارد مقابل فيليب، كونراد مقابل غي، أبناء بيزا مقابل أبناء جنوى، الداوية أَو فرسان الهيكل ضد الإسبتارية. كانت طريقة غريبة لإدارة حرب صليبية. غير أنّه بين عيد الفصح والعنصرة وبالرغم من هذه النزاعات الداخلية، حقّق فيليب تقدّماً حقيقياً في تقوية الهجوم. فقد بدأ قصفه المتواصل يعطّل الدفاع. كما تمّ خرق الجدار مرّتين قرب برج يهوذا، ولكن سرعان ما كان المدافعون يسدون الثغرة.

بالرغم من كون فيليب منظّماً ودبلوماسياً لامعاً فقد كان يفتقر إلىٰ خامة القائد الأعلى. لقد تمكّن من تحضير المائدة لريتشارد، ولكن لم يكن يملك التصميم أَو الصبر لدفع جهده إلىٰ القمة من دون منافسه الإنكليزي. إضافةً، إلىٰ ذلك، حصل قبل وصول ريتشارد بأسبوع، حادث مؤسف آخر أزعج فيليب وزعزع إرادة القتال عنده. في الأوّل من حزيران/ يونيو 1191م، قتل كونت

فلاندريا النبيل خلال الحصار. لقد كانت الفرقة الفلمنكية، بصلبانها الخضراء والتزامها الراسخ، فرقة قوية العزيمة في الحملة الصليبية منذ اليوم الأوّل لوصول خبر سقوط القدس، وكان كونت فلاندريا نفسه صرحاً من القوة. كان بالنسبة إلىٰ معاصريه «غنياً بالممتلكات المادية وبالشرف، كبيراً بذكائه وبقوّته، متحمّساً وعلى حق، شجاعاً وبارعاً في السلاح». لكنه كان أيضاً من دعاة طريقة الأرض المحروقة في سياسة الحرب الشاملة.

لقد نقل عنه فيما بعد قوله: «هكذا يجب أن تبدأ الحرب، هذه هي نصيحتي. أوّلاً دمّروا الأرض، ومن ثمّ الأعداء».

قبل أن تصبح المملكة اللاتينيّة في خطر بسنوات، كان الكونت يحجّ إلىٰ الديار المقدَّسة. وعندما وصف له رئيس أساقفة صور الكارثة في جيسور Gisors، كان بين أوائل الذين حملوا الصليب. وبعدما جمع مبلغاً كبيراً من المال، اكتسب قوّة كبيرة. وقد استلم الكونت قيادة القوات الدانماركية إضافة إلىٰ قواته. وكان بين مقاتليه واحد من أكثر الفرسان شهامة في الحملة الصليبية، جيمس داڤين d'Avesnes، وهو محارب شهير كان شعار نبالته أرضية ذهبية وشرائط حمراء. تميّز الكونت الألزاسي بالقوة، ولكن أيضاً باللباقة، وهذا ما أثبته حين تدخّل في صقلية لحظة قام الخلاف بين ريتشارد وفيليب بسبب أليس وهدّد التحالف.

والآن لاقى حتفه. هذه المأساة التي حصلت عند الأسوار كانت ضربةً قاسية للحملة. ولكن في رأس فيليب الماكر كان لها تداعيات سياسية عميقة تتعلّق بمجال سيطرته في أوروبا. فقد توفّي كونت فلاندريا ولم يخلّف وريثاً، ما دفع إلىٰ التنافس على منطقتي آرتوا وڤيرماندوا، اللتين طالما طمع ملك فرنسا بضمّهما إلىٰ مملكته. الآن إذاً يجب أن تصبح فلاندريا له، لولا أنّه في مكان بعيد، هنا في الشرق، ولا يستطيع الإفادة من تحوّل الأحداث المحزن والمثير للاهتمام.